مدخل إلى اللغويات التطبيقية

الفصل الثانى
وظائف اللغة

تأليف : س. پيت كوردر
ترجمة الأستاذ جمال صبري

اللغة كاحدى وسائل التخاطب :

بعد المناقشة العامة حول اساليب النظر الى اللغة ، تلك المناقشة التى جرت فى الفصل السابق قد يظن من المدهش أن أحدا جرؤ وحاول وضع تعريف لاى شيىء جد معقد ، ورغما عن ذلك كانت هناك محاولات لا حصر لها فى هذا الصدد ، غير أن أيا من تلك المحاولات لم يتسم بالاقناع والشمول التامين ، ولكن معظمها ، بسبيل أو بآخر ، يحاول ان يدخل على التعريف بيانا ما حول « وظيفة » اللغة ، وتتخذ تلك البيانات عادة صيغة من العبارات مثل : «بواسطتها يتخاطب الانسان » ، و « نظام للتخاطب » ، و « لاغراض التخاطب » ، هذا ، وفى الفصل السابق اعتبرت فكرة اللغة كوسيلة للتخاطب على انها احدى وجهات النظر الاجتماعية ازاء اللغة ، حيث ان تلك الفكرة انطوت على الاهتمام بالمتحدث ، والمستمع، وكذلك على كثير من مقومات موقف الحديث ، وهنا سامضى قدما فى أمر وظيفة التخاطب اللغوى ، علينا بادئ ذى بدء ، أن نمايز بين التخاطب المقصود والتخاطب غير المقصود : اذا راينا صديقا يسير على طول الطريق فقد نتمكن ، دون ملاحظته لنا ، والى حد كبير نسبيا الخروج باستنتاجات حوله وحول حالته الذهنية أو الصحية ، وعن الجهة التى يقصدها ولماذا كل ذلك من طريقة مشيته فحسب ، وفى هذا المعنى فان مشيته « تخبرنا بشيء ما ، الا انه لن يخطر ببال أحد انه يمشى بتلك الكيفية « بغية » التخاطب معنا على الرغم من أن ذلك قد يحدث احيانا ، مثل قولنا عن امراة ما : « لقد اندفعت خارج الغرفة واغلقت الباب بعنف » . هذا ، وسلوكنا جميعه تخاطبى ، الى حد ما ، بمعنى أن المستقبل يعلم شيئا لم يكن يعرفه من قبل ، حتى ولو لم تكن لدى « المرسل » نية معينة لاخباره باى شيء ، واخذا برأى مرشال 1970 Marshal (1) فانه من المجد ان نعد تلك السمة السلوكية سمة « اخبارية » ، محتفظين بالمصطلح « تخاطبى » لوصف السلوك الذى يلجأ المرء اليه بقصد الاخبار ، ومن ثم فالمشى أو غيره من الانشطة قد يحمل ، بطريقة عارضة ، معلومات لاحد الملاحظين الخارجيين ، وقد يتضمن هذا أيضا نشاطنا الصوتى اذ مثلما نتمكن من التعرف على شيء ما عن شخص معين من مشيته ، فانه بامكاننا كذلك استنتاج أمور معينة عن شخص ما من صوته ، فاولا لكل امرىء شيء معين يتفرد به من حيث صوته أو طريقة تحدثه ، حقا ، يمكن ، الى حدما ، تغيير خاصية الصوت ، أو نبرته عن عمد ، كما يمكن لشخص ما اتخاذ مميزات صوت شخص آخر ، وتلك مهارة المحاكيين ، وفى مثل هذه الحالات تستخدم المميزات « الدليلية » كما سماها ابركرومبى 1967 Abercrombie (2) للتخاطب المقصود اى للتضليل ، وبالمثل يمكننا التعرف على الوقت الذى يكون فيه شخص ما غاضبا أو مستثارا أو متعبا من « جرس » صوته ، كما نعرف ذلك من كيفية مشيته ، او من مظاهر اخرى عديدة فى سلوكه ، ومن ثم فسلوكنا جميعه اخبارى ، بصفة اساسية ، ويمكن استخدامه كذلك للتخاطب .

ومع ذلك فهذا لا يعنى انه يمكن « للمستقبل » دائما أن « يقرأ الاشارات » ، اذ لكى نخبر بشيء أو يتم التخطب معنا ، من الواضح بحاجة الى قدر معين من المعلومات العامة أو الخاصة ، وقد يكون من بين تلك المعلومات معرفة بتقاليد معينة ، فالتمييز بين التخاطب المقصود والتخاطب غير المقصود انما يكمن فى راس « المرسل » ، أما التمييز بين كون المرء مبلغا أو غير مبلغ أو مخاطبا أو غير مخاطب فيكمن فى راس « المستقبل » .

أما التمييز الثانى الذى يجب علينا معالجته فهو بين التخاطب اللغوى والتخاطب غير اللغوى ، عندما

(1) Marshall, J-C. (1970), « The biology of communication in man and animals » in J. Lyons (ed). New Horizons in Linguistics. », Penguin.
(2) Abercrombie, D. (1963), « Conversation and Spoken Prose », English Language Teaching, Vol. 18, no. 1, pp. 10-16, reprinted in D. Abercrombie, Studies in Phonetics and Linguistics OUP, 1965.

الوح الى شخص ما بيدى لاجذب انتباهه ، فانما اخاطبه بطريقة عمدية ، وانا افعل ذلك كجزء من خطة عمل مدروسة ، كمقدمة ، مثلا ، لاخباره بشيء ما او استعارة شيء منه ، هذا ويجب ان تكون ايمائتى واضحة نفسرها على انها « نداء » لا على انها مجرد « تحية » او « وداع » او « تحذير » ، وبمعنى آخر عليه ان يفهم الايماءة حتى يكون التخاطب معه ناجحا وتعد كيفية تفسير تلويحة او ايماءة ، فى اى مجتمع ، مسالة تقليد سلوكي مشترك بين «المرسل والمستقبل»

والسلوك التخاطبى مسالة تقليد اساسا ، ومع ذلك فالتلويحة لا تعد جزءا من التخاطب اللغوى ، فاذا ناديت « هيا ، يا بيل ، احضر هنا لحظة » ، فان نوايای تكون نفس النوايا ، الا ان تخاطبى هذه المرة سيؤخذ ، بصفة عامة ، على انه تخاطب لغوى ومن ناحية اخرى ، اذا صحت بالفاظ رديئة النطق ، قد يبدو من الصعب الحكم على ما اذا كان ذلك، حقا، تخاطب لغوى او غير لغوى ، اذ من الصعب وضع حد فاصل بين النوعين ، ويتوقف وضع ذلك الحد تماما على العالم اللغوى : وعلى الظواهر التى يجب على نظرياته ان تفسرها . والواضح تماما هو ان الامر لايقتصر على ما اذا كنا نستخدم او لا نستخدم اعضاء الكلام فى التخاطب ، فقبل كل شيء علينا استخدام السعال او الصياح او التثاؤب او الانين ومجموعة كبيرة من « الاشارات الصوتية » كتصرفات تخاطبية مقصودة ، يعدها نفر قليل « لغوية » ، وبالطبع ، يمكننا التخاطب لغويا عبر قناة البصر ، وعن طريق الكتابة ، وهذا لا ينطوى على استخدام الاعضاء الصوتية .

والفاصل بين التخاطب اللغوى والتخاطب غير اللغوى ليس محكما ثابتا ، اذ انه يتوقف ، بصفة اساسية ، على القرارات النظرية للعالم اللغوى ازاء ما يدخل فى مجال دراسة ، فيقوم علماء لغويون مختلفون بوضع الفاصل بين التخاطب اللغوى والتخاطب غير اللغوى فى اماكن مختلفة ، الا ان معظم العلماء اللغويين يتفقون ان الخاصية الرئيسية للسلوك اللغوى تكمن فى انه يتالف من عدد كبير متناه من الاشارات التحكمية الا انها تقليدية والتى قد تتحد بطرق معقدة مختلفة لابراز تباينات المعنى : من حيث ان السلوك اللغوى لفظى اساسا ، ومن ناحية اخرى ، فالتمييز بين السلوك الصوتى والسلوك غير الصوتى سواء كان ذلك السلوك تخاطبيا او اخباريا ، لهو مسالة استخدام اعضاء الصوت او عدم استخدامها، فحقيقة ارتباط التخاطب اللغوى اساسا بالسلوك الصوتى فى عقول الافراد هو ، الى حدما ، « حادث تاريخى » ، غالبا ما يسمى « اولية الحديث » وبهذا نعنى ان السلوك التخاطبى ينشأ بصورة طبيعية اولا على هيئة صوت ، ويظهر ذلك فى تطور الفرد وفى تطور المجتمعات البشرية معا .

ومن ثم علينا ان نمايز بين السلوك سواء كان صوتيا او غير صوتى ، وبين السلوك الاخبارى اساسا والسلوك التخاطبى قصدا ، كذلك يمكننا ايجاد فروق عدة بين السلوك التخاطبى (سواء كان لغويا او غير لغوى)وفقا لما يجرى نقله (تبليغه)، هذا، وسانتناول الموضوع بتفصيل اكبر فيما بعد فى سياق السلوك اللغوى على وجه التحديد ، بيد انه من المفيد فى هذا المقام ان نمايز بصفة مبدئية بين المهام الموقفية ، والمهام الادراكية ، للسلوك اللغوى (ليونز 1972 ، Lyons (3) وتكمن المهمة الموقفية للسلوك اللغوى فى استخدام هذا السلوك فى التعبير عن حالتنا الذهنية وعن عواطفنا ، ولايجاد «صلة» بيننا وبين مستمعينا، ولتاكيد مشاعر التكافل والثقة والود تجاههم ، اما الوظيفة الادراكية للتخاطب فتكمن فى التعبير عن ادراكاتنا الحسية ، وتخيلاتنا ، وارائنا فى « واقع الامور » ، واذا ما حللنا السلوك الاشارى للحيوان، بهذه الكيفية ، فان ذلك السلوك يتضمن ، على وجه الحصر ، المهمة الاولى ، فمن الظاهر ان الحيوانات تتفاعل مع المواقف بحيث يمكن للمراقب العلمى البشرى من حيث المبدا ، ومن حيث معرفة بالموقف الاجمالى، ان يتنبا باى اشارات صوتية او غير صوتية سوف تظهر ، ويتاثير تلك الاشارات على الحيوانات من نفس النوع ، او من نوع آخر ، وبمعنى آخر ، نحن نصنف سلوكا حيوانيا معينا على انه تعبير على الخوف، او

(3) Lyons, J. (1972), « Human Language », in R. A. Hinde, (ed) Non-Verbal Communication, The Royal Society and Cambridge University Press.

الصداقة ، أو العدوان ، ، ، وهلم جـرا ، لان ردود الفعل ازاء هذا السلوك من قبل الحيوانات الاخـرى تكون هروبا ، أو اقترابا ، أو استعدادا للقتال ...الخ ونحن نقرن سلـوك الخوف بالاستجابة بالهروب ، ثم نمضى فى القـول ان الحيوان « ينبه » غيره من الحيوانات الى الخطر ، فاذا اخترنا تسمية تلك العملية « تخاطب » ، كما يحدث غالبا ، فليس من حقـنا أن نفترض أنه تخاطب « قصدى » بالمعنى الذى استخدمته فيما يتصل بالسلوك البشرى ، اذ أن القصد ينطوى بالضرورة على الاختيار ، وتستثنى مجموعة اشارات الحيوان فكرة الاختيار هذه ، ولكى يكون لدينا ما يبرر غزونا التخاطب اللغـوى الى حيوان معيـن ، علينـا ايضاح أن ذلك الحيوان « ادرك» ان سلوكه تاثيرات معينة ، وانه استخدم تلك الاشارات لابراز التاثير ، ويتمثل اوضح دليل على هذا السلوك القصدى لو امكن جعل الحيوان يظهر اشارة الخوف او السرور بطريقة غير ملائمة ، اى يجعله يعطى معلـومات مضللة ، الا انه ليس ثمة دلالة واضحة على حدوث ذلك الامر (مارشـال 1970 ، Marshal (4) صفحـة 235 — 236) (3) .

واذا عدنا الان الى الوظيفة الادراكية للسلوك اللغوى ، يتضح لنا ان مجموعة اشارات الحيوان ، سواء كانت مقصودة أم غير مقصودة ، ليس لها وظيفة ادراكية ، وبالمثل قد يكون للسلوك التخاطبى للانسان سواء كان ذلك السلوك لغويا أو غير لغوى ، وظيفة موقفية ، الا ان السلوك اللغـوى وحده هـو الذى يختص بوظيفة ادراكية ، فنحن قد ننقل الخوف ، او مشاعر الود ، او السرور بصورة لغوية ، او بصورة غير لغوية ، الا انه لا يمكننا تاكيد ان شيئا معينا يتسم بالخطورة أو السرور بغير طريق اللغـة .

التخاطب والمعنى :

سبق لى القول بانه يمكننا التخاطب القصدى بوسائل اخرى غير الوسائـل اللغـوية ، فاختيارنا للوضعة او الايماءة او نبـرة الصوت أو تغيير الوجه . أو طريقة مشيتنا أو ملبسنا او اكلنا ، يمكن استخدام كل ذلك فى اخبار الناس بشىء معين ، ولكن اذا اردنا بلوغ النجاح فيجب على « المستقبلين » معرفة مجموعة القواعد المرعية التى نتبعها ، هذا ويمكن الى حد كبير تحديد المشية « المتعبة » من ناحية وظائف الاعضاء غير انه يمكن محاكاتها ، فثمة طريقة « مقبـولـة » للمشى تنم عـن « التعب » . ويقوم قدر كبير من التمثيل غير الجيد على مثل هذا النوع من القواعد المرعية من قبيل : امداد المرء يده فى شعره وكبت التثاؤب والقعقعة وربما كان كل سلوكنا يتسم بأحد عناصر العـادات التقليدية ذلك لانه انما يكتب فى المجتمع ولهذا السبب بالذات فان الهيئة التى يتخذها ذلك السلوك تصبـح مميزة للمجموعة الاجتماعية التى يكتب فيها ولمذيد من الامثلة انظر لابار 1972 — La Barre (5) وهذا جزء ممانعنيه بالثقافة ، فنحن نتخاطب تخاطبا عمديا حين نستخدم سلوكنا عن عمد فى حدود نطاق مسموح بـه ووفقا لمجموعة من قـواعد السلوك المـرعية حتى نستخدمها فى التخاطب وهذا يصدق بكل وضوح على اللغة كما انه يصدق على غيرها من اساليب السلوك

هذا وغالبا ما يطلق اسم شبه لغوى على اى استخدام عمدى للسلوك الجدى فى اغراض التخاطب وفى حدود القواعد المرعية ، ومن قبيل ذلك الايماءة والوضعة وتعبير الوجه ودرجة السرعة ودرجة الصوت ونوعية الحديث وثمة ميل قوى لان يصاحب السلوك شبه اللغوى السلوك اللغوى كنوع من الطباق وهما يختلطان مثلهما فى ذلك مثل الالحان التى تختلط فـى عملية مزج الالحان ويتمثل ذلك عندما نومىء اتجـاه شىء معين بدلا من استخدام تعبيـر لفظى : « فقط » اعطنى ذلك ، ، ، (ايماءة) او كما يحدث كثيرا فى المحلات والمكاتب : « واسمك . . . ؟ » مصحوبا برفع الحاجبين أو بامالـة الراس .

ويصعب التنبؤ تماما بالقدر القليل من السلوك

---

(4) Marshall, J.C. (1970). « The biology of communication in man and animals » in J. Lyons (ed). New Horizons in Linguistics. », Penguin.

(5) La Barre, W. (1972) « The cultural basis of emotions and gestures », J. Person, no. 16 pp. 49-68 ; reprinted in J. Laver and S. Hutcheson (eds). Communication in Face-to-Face Interaction. Penguin.

اللغوى أو غير اللغوى للانسان اذ لو كان التنبؤ أمرا ممكنا فانه من الصعب اخبار الملاحظ بأى شيء لم يعرفه مسبقا ومن ثم فهذا ليس من قبيل الاخبار ، فلو كان لكل فرد نفس نوعية (الصوت) أو كان كل فرد يرتدى ملابسه بطريقة واحدة فان السيمات السلوكية هذه لن تنم عن اية معلومات ومن المحتمل كذلك الا تكون لهذه السمات الفاظ فى لغتنا ، ولكانت تظل سمات عالمية ثابتة يجب قبولها كأمر مسلم به مثل كون للمرء انفا فهى مسألة لا اختيار لنا حيالها ، ولكن اذا كان لنا الخيار ، فثمة احتمال لاستخدامها فى التخاطب ، وينطوى الاختيار بداهة على حد معين من البدائل التى يجليها الحدس نوع معين من النظام التقليدى ينطوى على المعنى .

ما يتم نقله ؟ :

تميل التقارير اللغوية على نحو نموذجى الى النص على ان وظيفة اللغة هى نقل « الفكر » غير اننا اذا فسرنا كلمة « فكر » بطريقة تحريرية بحيث يتضمن المعتقد والآراء والاحكام والادراكات فان ذلك يعد تقريرا محدودا للغاية ، ويمكننا قياس ذلك بوضع عبارة « اعتقد » فى صدارة تعبيرات قليلة ونتأكد اذا كانت مفهومة او من الافضل التأكد من ان الاضافة لا تحدث تغييرا هاما فى المعنى اننا اذا نقلنا ذلك فسنجد مجموعة كاملة من التعبيرات التى تتأثر قليلا بتلك الاضافة ومجموعة اخرى تخضع لتغيير هام فى المعنى :

لقد ارتكبت الحكومة خطأ آخر
يجب أن تزور طبيبا
ستعود ربيكا غدا
هذه بلوزة جميلة

تبدو هذه الجمل قليلة التغير نسبيا فى معناها باضافة « اعتقد » قبلها ، ولكن ماذا يكون الحال بالنسبة للجمل الاتية :

يابت ، لايمكنك اجابة هذا السؤال
يا بيل يا محنك !

هل يمكنك ان تدلنى على الطريق الى الاوديون ؟
بالطبع ، يسرنى ذلك
ستتلقى اجابتى غدا

وتأتى المغالاة فى تقدير وظيفة اللغة كاداة لنقل التعبير عن الافكار من حقيقة أن المهتمين باللغة من الناحية التاريخية كانوا الفلاسفة وعلماء المنطق اذ كانوا يشتغلون بالناحية الافتراضية للغة من حيث قيمتها وحقيقتها ، وكانوا يميلون الى تركيز اهتمامهم على انواع الجمل التى يمكن تحليلها بصفتها معبرة عن الافتراضات الحقيقية او الكاذبة الا أن من العسير التأكد من صدق أو كذب التعبير عن الرغبات والبهجة والالم والرضا او عن المسائل والاوامر الا بالقدر الذى نفترض به شيئا حقيقيا أو كاذبا . ونحن لايمكننا القول بأن جملة « امرر الملح » حقيقية أو كاذبة فى حد ذاتها وكل ما يمكننا قوله أن الادراكات أو الافتراضات الخاصة بالموقف الذى تنطق فيه تلك الجملة قد يكون كاذبا حقا اى ربما لا يكون هناك ملح وبالمثل فسؤال من قبيل « كم عدد ارجل الاصلة العاصرة ؟ » لا يتسم بالحقيقة أو الكذب وانما الكاذب فى الامر هو الافتراض الضمنى من ان الاصلة العاصرة ليس لها أية أرجل على الاطلاق .

و فى حين تستخدم اللغة للتعبير عن افكارنا ، فتلك ليست وظيفتها الوحيدة اذ قد يكون من الصحيح أن معظم الجمل تحتوى على عنصر أو عناصر معينة تفترض او تؤكد عقائد أو ادراكات معينة عن موقفنا الحالى او موقف العالم بصفة عامة الا أن ذلك لا يمكن ان يماثل بأى حال قولنا أن وظيفة اللغة هى التعبير عن افكارنا .

اذا فاول شيء علينا مواجهته هو اننا نستطيع القول بماهية وظيفة نبذة من اللغة اذا اخذناها بمعزل عن سياق الكلام والموقف الذى استخدمت فيه ، فقد تنطق نفس مجموعة الكلمات فى مناسبات مختلفة بنوايا وتأثيرات مختلفة ، وببساطة لا يكفى تسجيل الكلمات التى تنطق ، بل علينا أن نتساءل عن سبب النطق بها ، ويمكننا تنفيذ ذلك بنجاح فحسب كما شاهدنا اذا كان لدينا قدر كبير من المعلومات عن المتحدث والمستمع والموقف ، ذلك انه عندما ذكر نقلا عن احد المسؤولين فى جريدة قوله انه تجب « معاملة » النهر المحلى « كبالوعة مفتوحة » ، لاحظ الصحفى الذى نقل الحديث انه كان يفترض أن يكون ذلك بمثابة « تحذير » وليس « كدعوة » ، وما زلت لا استطيع تقدير ما اذا كانت اللافتة التى تقول « عبور المشاة » تعنى «تعليمات» للمشاة أم « تحذيرا » لسائقى السيارات فوراء اى

تقرير ـــ قد يبدو محايدا او بريئا ظاهريا ـــ للحقيقة قد تكمن نية أخرى وهذا احد مشاكل التحدث عن الوظائف التخاطبية للغة ، فنحن لا نستطيع تصنيف المنطوقات بدقة وفقا لصيغتها النحوية أى وفقا لصيغة الامر ولاستفهام الخبر . . وهلم جرا ، ثم نقول ان لكل صيغة وظيفة واحدة فحسب على العكس من ذلك علينا القول انه قد يكون لأى منطوق عدة وظائف فى آن واحد وانه ليس ثمة علاقة عامة بين صيغة منطوق ووظيفته بالرغم من وجود علاقة احصائية (احتمالية) مثلا بين الجملة الاستفهامية ووظيفة توجيه سؤال ما .

قمت فى القسم السابق بالتمييز بين الوظيفة الموقفية والوظيفة الادراكية للحديث فيما يتعلق بالتمييز بين السلوك اللغوى والسلوك غير اللغوى ونتعلق الوظيفة الادراكية بوضوح بما اسميته هنا بعنصر المنطوق الذى يعبر عن عقائدنا ، أو ادراكاتنا أو تصوراتنا لموقف ما ، او لموقف العالم بصفة عامة ويمكن الحكم على هذا الجزء من المنطوق (اذا كان له مثل هذه المكونه ، ويشير الى وقت ومكان معينين) ، بانه حقيقى أو كاذب حقا ، ولهذا السبب فهو يسمى أحيانا بالعنصر الافتراضى او الضمنى فى المنطوق (انظر سيرل 1969 (Searle (6) وبالطبع قد يكون فى نيتنا التضليل أى أن نقدم شيئا عكس الطريقة التى نرى بها الامور حقا او نعتقد انها كذلك على انه راينا ، أو ادراكنا ـــ الا ان هذا لا يعنى ان ذلك الجزء من المنطوق غير ادراكى ، فالوظيفة الموقفية عبارة عن مركب من الوظائف العديدة المتصلة احداها بالاخرى. فتعبيرات السرور والالم والخوف والرغبة وهلمجرا ليست تعبيرات عن كيفية رؤيتنا للامور او عما نعتقده فى وضعية الامور ، انما هى ردود فعلنا الشخصية ازاء وضعية الامور ، سواء كان ذلك طوعا ام قسرا، فمنطوق « ربيكا ستاتى غدا » قد يكون خبرا محايدا مثيرا للعاطفة لما نعتقده صوابا أما اذا قلنا «انه لمن الخير أن تاتى ربيكا غدا » او « آمل أن تاتى ربيكا غدا » فاننا نضيف تعبيرا لموقفنا العاطفى لوضعية الامور كما نراها ، وبالمثل قد ننوى التضليل بالطبع . او أذا قلنا «ربيكا قد تاتى غدا» او «ربيكا لن تستطيع الحضور غدا » فاننا نضيف تقديرنا لاحتمال وضعية الامور ، وقد يحتوى هذا المنطوق على مضمون عاطفى (ويتوقف ذلك على علاقتنا بربيكا) ولكنه ، اساسا تعبير عن درجة الثقة المتوفرة لدينا شخصيا فى صدق ادراكنا لوضعية الامور ، ومرة ثانية قد تكون بنائية الى التضليل . وغالبا ما يقال للاحكام الخاصة باحتمال أو ترجح أو امكانية او تاكيد العنصر الفرضى للتعبير ، العنصر النموذجى للمنطوق ، وقد نقول « ربيكا ، فلتحضرى الى المنزل غدا ! » ، من الواضح اننا هنا نعبر عن رغبة فى وضعية معينة للامور ، وبقدرما تعبر تلك المنطوقات المختلفة عن عاطفة او ثقة او رغبة فى وضعية معينة للامور ، بقدرما تتضمن جميعها عنصرا يخبر المستمع بشىء معين عن المتحدث ، فجميعها تنطوى على عنصر فرضى فيها ، والآن ،يمكننا ان نتساءل : هل يمكن وجود منطوقات ذات وظيفة موقفية فحسب ، أى منطوقات ينقصها العنصر الفرضى او الادراكى ؟ وما العنصر الفرضى فى « مرحبا ! » او « الى اللقاء ! » او « كيف حالك ؟ » . يصعب القول بان تلك المنطوقات تعبر عن ادراك لوضعية الامور ، بالرغم من ان نطقها قد يفترض وجود مثل هذا الادراك واذا نظرنا الى مثل تلك المنطوقات ، نجد انه يمكن التنبؤ بحدوثها تماما ، وان بنيتها صيغية ، ولهذا السبب فهى تشبه ، الى حد كبير ، فى طبيعتها النداءات التى توجه الى الحيوانات ، ولذلك اطلق عليها بعض الناس مسمى سلوك « شبه لغوى » ، فمن الواضح ان وظيفتها موقفية ، بالرغم من انها قد لا تحدث اكثر من ايجاد شعور بالتضامن او علاقات الود بين المتحدث والمستمع ، الا ان الغالبية العظمى من المنطوقات ليست من هذا النوع الصيغى ، وتحتوى فعلا على عنصر افتراضى ، وربما كان ذلك هو السبب فى ان العرف جرى على اعتبار « نقل الافكار » كوظيفة أولى او وحيدة للغة .

اداء الحديث :

تنطوى معظم المنطوقات على عنصر ادراكى ، غير ان هذا لا يعنى ان وظيفة اللغة هى ، ببساطة ، التعبير عن ذلك العنصر ، فكل ما للغة هو عنصر موقفى يرتبط بنوايا المتحدث ، وعن طريقه ينقل شيئا معينا عن حالته الذهنية ، ونشاطه ، وعن سبب تحدثه

(6) Searle, J.R. (1969) « Speech Acts,» Cambridge University Press ».

اصلا ، وبالطبع ، قد لا يعبر ذلك العنصر الموقفي صراحة ، كما شاهدنا ، فكل منطوق لا يبدأ بلفظة « أنا » ، ولكن يمكن استهلال أي منطوق بكلمات من قبيل « أريد » أو « أتمنى » ، أو « أمر » ، أو (أستنكر) أو غيرها من مئات الافعال التي تعبر ، حرفيا ، عن النوايا ، والاماني ، والمعتقدات ، والتوكيدات ، دون تغيير المعنى في سياق معين ، بأي حال من الاحوال، ويمكننا القول بأنه ثمة تغيير محتمل لكل منطوق في الظروف التي تبدأ بمثل : أنا . . . أن . وهكذا ، يمكننا اقتراح تفسير لعبارة « أدنى » و « محايدة » مثل اثنين واثنين أربعة ، فنقول « أحسب أن اثنين زائد اثنين يساوي أربعة ، أو بالنسبة الى : كم الساعة « أرجو أن تخبرني كم الساعة ؟ » وبالنسبة الى : أحضر هنا لحظة ، «آمرك بالمجيء الى هنا» ، وبالنسبة الى : يجب غسل هذه السيارة بعد ظهر اليوم بقولنا أطلب أن يقوم شخص ما بغسل هذه السيارة بعد ظهر اليوم » ، وبالنسبة الى : ها هو بيل بقولنا «أنبأ بأن هذا هو بيل » أو « دعنا نذهب الى السينما» بقولنا « أقترح أن نذهب الى السينما » . ثمة أفعال حديث معينة تتطلب ، في ظروف معينة ، وصف طبيعة الفعل في المنطوق بوضوح ، حتى يكون فعلا من هذا النوع ، ومن الناحية النمطية تكون لمثل هذه الافعال خلفية قانونية أو دينية ، وعادة ما يكون المنطوق جزءا من الطقوس والشعائر الدينية ، فمثلا ، عند ذكر أسماء المشتركين في حفل ديني على ظهر السفينة، يشعر هؤلاء المشتركون بأن عملية ذكر الاسماء لم تستخدم الكلمات « انى أسمي هذه السفينة . . . » وبالمثل فاننا نشعر بأن الطفل لم ينصر بطريقة صحيحة في حالة قول القس « دعنا نسميه ارشيبالد ، هلا سميناه كذلك ؟ » ويمكننا القول مع أوستن 1955 Austin (7) أن نطق صيغة لغوية محددة جزء اساسي من اداء الفعل ، هذا ، ويمكن تعميم هذه الفكرة بالنسبة للحديث برمته ، فنطق الحديث هو « اسلوب لاداء » فعل معين ، والكلام ليس فعلا في حد ذاته ، الا اذا اعتبرنا تحريك المرء لذراعه فعلا ، فقد يكون تحريك الذراع جزءا من لعبة ضربة جولف ، أو ادارة حركة المرور ، أو دق مسمار وهلم جرا ، واذا اتبعنا مجرى المنطق هذا ، لوجدنا أن ثمة أنواعا مختلفة من أفعال الكلام ، كما أن هناك « أفعال الكلام » أو « أفعال الاداء » ، كما يسميها أوستين Austin وهذا يعني المئات من الأفعال التي تدخل في اطار « وانا هنا . . . أن . . . » أي أفعال الاداء .

غير أن بيانا عن وظائف اللغة ، بيان يذكر كل الافعال المسماة يعد صعب المأخذ تماما بحيث لا يجدي نفعا كبيرا ، وهنا نحتاج الى تصنيف هذه الافعال الى مجموعات تكون لها مميزات وظيفية ، وهكذا ، يجب علينا الاتفاق على أن أفعال الامر واصدار التعليمات والمطالبة واصدار الاوامر والنواهي لها صفة مشتركة وهي جعل المستمع الينا يأتي بفعل شيء ما وينتهي عن اتيان فعل ما ، اذا فلها تماثل وظيفي ، وقد نود تضمين تلك المجموعة الطلب والتساؤل والاستفهام ، وكلها تنطوي على جعل المستمع الينا يقول شيئا ، واذا اردنا تسمية هذه المجموعة من وظائف الحديث فقد نتبع أوستن Austin في تسميتها بالافعال التوجيهية، اذ انها ترمي الى تنظيم سلوك من يستمع الينا ، أو التحكم في بيئتنا بصفة نهائية ، عن طريق أناس آخرين ويقسم أوستن Austin كافة أفعال الحديث الى خمس فئات مختلفة ، وينبغي الا تعوقنا المسميات التي يطلقها على تلك الفئات ، اذ أنه يعتذر عن التعبيرات الجديدة التي صاغها ، وتتركب المجموعة الأولى من الافعال التي تؤلف الاحكام على أحوال الأمور والتقسيمات ، والتقديرات ، والتخمينات ، وهي الافعال التي تعطي اضافة الى شيء ما ، حقيقة أو قيمة ، وتتركب المجموعة الثانية من الافعال على شيء من السلطة أو النفوذ أو الحق من قبيل التعيين أو التصويت أو الأمر أو النصح أو التحذير ، أما المجموعة الثالثة من الافعال فتلزم المتحدث باتيان فعل معين مثل الوعد أو التعهد أو اعلان النوايا أو الافصاح عن عقيدة أو ايمان . أما المجموعة الرابعة فتتناول السلوك الاجتماعي بصفة اساسية مثل الاعتذار وتقديم التهاني أو العزاء أو التحدي . وتتضمن المجموعة الخامسة اتخاذ موقف ازاء شيء معين مثل

(7) Austin, J.L. (1955), « How to Do Things with Words ».

المناقشة ، أو الرد أو التنازل ، أو الادعاء ، أو الافتراض .

والآن ، قد يبدو هذا النوع من التصنيف مشابها لنوع تصنيف الجمل الى خبرية وامرية واستفهامية وتعجبية ، تلك الجمل التى نألفها فى كتب النحو ، وعلى هذا فهى مشابهة الى حد ما ، اذا ما استثنينا اتسامها بالتفصيل ، وقيامها لا على تحليل صيغ لغوية فحسب بل على الغرض من استخدام هذه الصيغ أو « اعتبارها » فى مواقف الحديث الفعلية ، فمثلا : هل علينا أن نصنف الجملتين التاليتين معا : « هذا الطلاء ما زال بليلا » و « ستتلقى اجابتى غدا » لا لشىء سوى انهما خبريتا الصيغة . فى كثير من المواقف تفسر الجملة الاولى على انها تحذيرية ، وتفسر الثانية على انها وعد ، وفى الواقع يمكن اعتبار كلتا الاثنتين كتأكيد للحقيقة ، ذلك فى سياق معين ، اذا ما نطق بهما بتنغيم ملائم ، فمثلا يقال : « أؤكد ان الطلاء مازال مبللا » و « أؤكد لك انك ستتلقى اجابتى غدا » . ومع ذلك ، فالامر يتطلب شيئا من الابداع لتصور موقف يجب علينا ازاءه القول « انا اعد بأن الطلاء مازال مبللا » و « انا انذرك انك ستتلقى اجابتى غدا » الا أن احدا لا يتصور العكس » انا احذرك من ان الطلاء ما زال مبللا » و « اعدك بانك ستتلقى اجابتى غدا » ولو ان حقيقة امكان تصورنا هذا تعزز ما سبق لى قوله بالفعل من عدم وجود علاقة متناظرة بين مجموعة من افعال الحديث والصيغة النحوية لمنطوق ما ، وانه يبدو ان أى منطوق تقريبا يمكن ان تكون له اية وظيفة فى سياق ما وموقف ما تقريبا ، وهكذا ، ليست صيغة المنطوق هى وحدها التى تحدد كيفية فهمنا له فحسب بل خصائص موقف الحديث برمته ، وهذا ما يجعل تصنيف افعال الحديث بطريقة نظامية وصحيحة علميا امرا جد صعب ، كذلك فانه السبب وراء لجوئنا الى حد كبير الى المعايير الخاصة بهذا الموضوع والتى تقوم على الفطرة السليمة ، وتتمثل احدى المشاكل الكبرى للغويات والتى لم تحل حتى الآن فى اكتشاف العلاقات بين السمات الصيغية للمنطوق وبين الموقف ، وهى مشاكل تؤدى الى تفسير معين للمنطوق كتحذير او وعد او تأكيد او كمثال لمجموعة معينة اخرى من افعال الحديث ، ونود ان نعطى تفسيرا لتلك الملحوظة التى نسميها بصفة عامة : « اننى ادرك ما تقوله ، لكنى لا أعرف ما تعنيه » والتى احيانا تختصر ببساطة لتصبح « أنا لا افهمك » .

وظائف الحديث :

تكمن احدى طرق معالجتنا لهذه المشكلة فى البدء بتحليل احد مواقف الحديث ، وبادىء ذى بدء، يجب ان يكون هناك مشتركان هما انا وانت ، اى المتكلم ، والمخاطب ، او « المرسل » و « المستقبل » ولابد من التصميم على وجود هذين المشتركين حتى فى حالة الاتصال عن طريق الكتابة ، حيث من الطبيعى الا يتواجد المشتركان جسديا فى نفس الزمان والمكان ، كذلك فكل كاتب يكتب الى او من أجل فرد معين على الرغم من انه قد يتصور قراءه بطريقة غير محددة ، وقد سبقت لى الاشارة الى الحالة التى نتحدث فيها الى انفسنا ، ونوهت الى ان مثل هذا النشاط يتعلق ، بشكل ما ، بعمليات تفكيرنا ، أو انه ذو وظيفة تنظيمية ذاتية ، ولكن ما يعنينا هنا هو التخاطب، اى الوظيفة الاجتماعية للغة ، فالتحدث الى نفسك ليس نشاطا اجتماعيا بالنسبة للناضجين ، على الرغم من ان التمييز قد لا يكون واضحا بالنسبة للاطفال الصغار بياجيت 1926 (8) Piaget

ولكى تتم عملية التخاطب ، يجب ان يقوم الاتصال بين المشتركين ، فالقرب الجسدى بين شخصين لايقيم موقفا كلاميا ، وعلينا ان نجعل الناس منتبهين، وفى انواقع ان رفض المرء الانتباه فى مواقف معينة ، عن عمد ، وما نسميه « مقاطعة شخص ما » يعتبر فعلا ذا دلالة فى حد ذاته ، هذا ، ويمكننا بطريقة مجدية التمييز بين ايجاد الاتصال و « والمحافظة على الاتصال » اذ يتم اولهما عن طريق الافعال التى تجذب انتباه المستمع ، وتوضح اننا نود الاشتراك معه نفسه ، وليس مع شخص آخر ، فى المحادثة ، وتسمى هذه الافعال « بالنداءات » من نوع او آخر ، مثال ذلك : هيا ، بيل ! ارجو المعذرة ، يا سيدى ! ويمكننا وصف

(8) Piaget, J. (1926). « Language and Thought of The Child », English edn, Routledge and Kegan Paul.

ذلك بأنه اتصال مادى ، ولكن لا ينبغى الاقتصار على ايجاد الاتصال المادى ، بل يجب فتح قناة للاتصال والحفاظ عليه ، وغالبا ما نجرى « اختيارا للقناة » بتعبيرات من قبيل : اتسمعنى ؟ ، او الحث على الحديث بقولنا « تكلم جهارا » ، الا ان الاتصال ليس ماديا فحسب ، بل انه نفسانى أيضا ، فيجب علينا الحفاظ على « الالفة » مع المستمع الينا ، وجعله مهتما وودودا او متعاونا ومستمرا فى المحادثة ونحن نفعل ذلك عن طريق ما نسميه عادة « محادثة قصيرة (لغوا) » او « المحادثة حول شؤون تافهة » مثل الطقس والاستفسار عن الصحة ، وبث المديح والتشجيع ، ونحن نختبر كذلك اتصالنا النفسانى بالمستمع الينا : « هل تفهمنى ؟ » و « هل تتابعنى بانتباه ؟ » . ونحن نساعد المستمع الينا على فعل ذلك بتنظيم حديثنا بطريقة منطقية : «اولا وقبل كل شىء» و «وما اعنيه هو . . .» و « أما نقطتى التالية فهى . . . » و « كما سبق واشرت . . . » هذا نوع من « ابراز » حديثنا .

هذا ، ولا تنشأ المحادثة او الاتصال بين الافراد فى فراغ بل فى زمان ومكان معينين ، وفى « خلفية » مادية وزمنية ، فقد يكون الافراد جلوسا او وقوفا ، ماشين أو راكبى سيارة ، وقد يكونون من بين زمرة من الناس ، أو بمفردهم معا ، بين اصدقاء او غرباء فى حجرة ، أو كاتدرائية أو شارع ، وقد تؤدى كل هذه العوامل دورا فيما يجرى فى المحادثة ، الا انها لاتمثل محورها . فقد يحد مكاننا ومع من نتحدث ووقت حديثنا مما نتحدث فيه وكيفية حديثنا حوله ، الا انها ، لذلك السبب ، ليست موضوع محادثتنا ، وبالطبع ، ثمة اماكن واوقات للتحدث عن امور معينة ، وكذلك اماكن وأوقات لعدم التحدث عن تلك الأمور ، فمن الواضح أن موضوع الحديث يعد عنصرا هاما فى موقف الحديث ومهما كانت وظيفة المنطوق فهى دائما وتقريبا حول شىء ما ، وستنطوى على ما اسميته بالعنصر الخبرى وقد تكون ثمة علاقة او لا علاقة بين خلفية واقعة الحديث والعنصر الخبرى فيه ، غير انه ثمة صلة بين موضوع الحديث ومضمونه الخبرى ، حتى لو كان الحديث حول امور خيالية بحتة مثل الجنيات او العفاريت او احاديث القرن .

وقد نوجد اتصالا مع شخص آخر ، الا اننا لا نتخاطب معه عن طريق اللغة ، ويمكن حدوث ذلك اذا كنا غير مشتركين فى تقاليد الكلام ، اى فى حالة عدم وجود نظام لغوى مشترك بيننا ، اذ تمثل السمات الشكلية للغة المشتركة بين المشتركين عاملا هاما فى موقف الحديث .

وعندما نتخاطب مع شخص ما فاننا ننقل شيئا ما ، رسالة ، وقد يحد الموقف من سبل نقلنا تلك الرسالة بطرق متعددة ، فاذا كان الموقف ضاجا صاخبا ، قد يتطلب الأمر منا الصياح ، واذا كان ممتدا ، قد يكون من الواجب علينا الاختصار ، واذا كان الموقف رسميا فعلينا انتقاء مجموعة من الكلمات التى تختلف عن الكلمات التى قد نختارها فى موقف غير رسمى ، ولكن — حتى بعد اخذنا كل تلك الأمور فى اعتبارنا — يمكن نقل نفس الرسالة بمجموعة من السبل المختلفة ، هذا ، وتعد صيغة الرسالة نفسها أحد عوامل موقف الحديث ، اذ يمكن استخدامها بحيث تنقل شيئا ما .

وقد تكون كل هذه العوامل السبعة : المتحدث، والمستمع ، والاتصال بينهما ، والمجموعة اللغوية المستخدمة ، والخلفية ، والموضوع ، وصيغة الرسالة — قد تكون كلها بؤرة فعل الحديث ، اى العنصر الذى يوجه النشاط اليه ، ويمكن ربط وظيفة مختلفة للحديث مع كل من تلك العوامل ، فاذا كان التوجيه نحو المتحدث ، فأمامنا ما سبق تسميته بالوظيفة الشخصية للغة ، فمن خلال هذه الوظيفة يكشف المتحدث عن موقفه ازاء ما يتحدث عنه ، وفى آخر الأمر يفصح لمستمعه عن شىء من شخصيته ، ولا يقتصر الامر على انه يعبر عن احساسه « من خلال اللغة » ، بل عن احساسه « بصدد » ما يتحدث عنه، ونحن كمستمعين يكون الامر اخباريا اذ نستشعر فقط ان المتحدث غاضب وحزين ، أو سعيد ، ويصبح الأمر تخاطبيا حين ترتبط حالته الانفعالية بما يتحدث عنه، اى بسبب غضبه او حزنه او سعادته .

والحديث الموجه الى المستمع هو ذلك الحديث الذى تكون وظيفته توجيهية ، وهى وظيفة التحكم فى سلوك احد المشاركين فى الحديث ، لا بقصد دفعه الى اتيان فعل معين ، أو التصرف او الحديث فحسب ، بل ليسلك سلوكا وفق خطة ما او اسلوب معين محبب للمتحدث بصفة عامة ، وقد يتم ذلك عن طريق الأمر

مثل : «عادة ما يفعل الناس هذا او ذاك» او «عادة او الطلب او التحذير او عن طريق عبارة نصح عامة مالا يفعل الناس هذا او ذاك» او «يجب عليك الا تفعل هذا او ذاك » ، عن طريق استصراخ العقوبات القانونية او الاخلاقية المألوفة فى المجتمع .

اما عندما تكون البؤرة مركزة على الاتصال بين المشاركين فى الحديث ، فاننا نجد الحديث موظفا لاقامة العلاقات والحفاظ عليها ، والسمو بمشاعر السود والزمالة ، او التكافل الاجتماعى ، وتتسم هذه الامور بانها ذات صيغة عظيمة ، او من قبيل الطقوس ، الاستئذان ، والتحيات ، وابداء الملاحظات حول الطقس والاستفسار عن صحة افراد الاسرة ، كما تؤدى هذه الوظائف التى احيانا ما يقال لها وظائف « اجتماعية »، بالحركات ، والاتصال المادى ، وتعبيرات الوجه، وكذلك بالتلويح ، او الشد على الايدى ، او الابتسامات ومهمتها تلطيف « الهدف » وجعله « رقيقا » .

اما الوظيفة التوجيهية للحديث نحو الموضوع والتى يغلب تسميتها بالوظيفة « الاسنادية » ، فهى تلك التى تلوح فى عقول الناس الى حد كبير ، وهى تحقق بطريقة نمطية عن طريق العنصر الافتراضى فى المنطوق ، وكما راينا فان هذه الوظيفة هى التى اثارت الفكرة التقليدية ونحواها ان اللغة هى المختصة بنقل الفكر ، وتنسيق العبارات حول كيفية تصور المتحدث لمجريات الامور فى العالم

والآن نصل الى الوظيفتين المرتبطتين بمجموعة نظم الحديث ورسالته ، وهما — من بعض النواحى — من اصعب الامور التى يجب الالتزام بها ؛ فحين يتخاطب الناس احدهما الى الآخر ، يجب الا يقنعوا باقامة الاتصال بينهما فحسب عن طريق « اختبار الوسيلة » ومن قبيل ذلك قولنا : هل يمكنك الاستماع الى ؟ — غير ان الاتصال مستمر بين المتحدث والمخاطب عن طريق اختبار فهمهما المتبادل بـ « هل انت متتبع الحديث ؟ » « هل تدرك ما اقول ؟ » وهذا ما نستطيع تسميته بوظيفة التوجيه نحو الاتصال ، اما الطريقة المثلى لضمان كون الاتصال ناجحا فتكمن فى مراعاة المشتركين فيه لقواعد النظام بصورة فعلية ، فحين يشترك شخصان فى لعبة مثل « الشطرنج » فليس من الضرورى عادة التاكد — قبل بدئهم اللعب — من انهما يتفقان على قواعد اللعبة ، لان تلك القواعد معروفة وثابتة ولا يعتريها لبس او ابهام ، اما حين يلعب الاشخاص « لعبة اللغة » فعليهم التاكد — بصفة مستمرة — من انهم يلعبونها وفق نفس مجموعة القواعد وهذه هى وظيفة التعريف ، والتعريف عبارة عن بيان لقاعدة فى « لعبة اللغة » ، يدعو المتحدث المستمع الى قبولها حتى يمكن للمحادثة ان تستمر هذا ، وقد وصف العلم بانه اسلوب للتحدث عن العالم ، واذا ما نظرنا اليه بهذه الكيفية لوجدنا ان كتاب العلوم عبارة عن كتاب لقواعد لغة التحدث عن العالم ، وقد سميت وظيفة اللغة هذه بانها وظيفة ما وراء اللغة او لغة عن اللغة ، وانها الوظيفة الرئيسية فى عمليتى التعلم والتعليم

اما عندما يكون التركيز على الرسالة ، فعلينا الاهتمام بالوظيفة التصورية للغة ، وهنا يجب علينا ان نتاكد تماما من اننا لا نخلط بين شيئين : استخدام اللغة للتعبير عن افكار اصلية او غير معتادة ، او آراء او مشاعر او خيالات جامحة او اى شىء فى جعبتك ، وبين الوظيفة التصورية للغة للتعبير عما قد يكون دنيويا او الامور الواقعية او الترهات البحتة ، وبالطبع يحدث الامران معا وقد يكونا ملتزمين بطريقة لا فكاك منها ، ولكنى اعنى بالوظيفة التصورية للغة ذلك الشق الثانى فقد تستخدم اللغة للغة نفسها ، وللبهجة التى تبثها المتحدث بها والمستمع اليها ، فاراجيز الاطفال وطنطنتهم قد تكون بغير دلالة ، وحتى لو كانت ذات دلالة فهى تدور حول شىء غير مشوق او هام البتة ، وتتحقق وظيفتها من خلال اصواتها وايقاعاتها وترنيماتها ، وما ذلك الا نوع من استخدام اللغة ، وظيفته تصورية فليس المقصود من « ربت الكعكة » ، « ربت الكعكة » اعطاء وصفة لعامل المخبز .

ويتبع التحليل الذى اوردناه فى الصفحات السابقة متابعة لصيغة ذلك التحليل الذى اورده هيمس 1968 Hymes (9) ، وليس من الصعب التحقق من مدى تلك

(9) Hymes, D. (1968), « The enthnography of speaking », in J. Fishman (ed), Readings in the Sociology of Language, Mouton.

المتابعة ، على الاقل فى نقطة معينة الا وهى : تصنيف افعال الحديث ، ومن الواضح انه ينبغى أن تكون ثمة علاقة بين افعال و ممارسة الحقوق والسلطات ، وبين الوظيفة التوجيهية للغة ، وبالمثل ، تستمر الوظيفة الاسنادية للغة ، الى حد كبير ، بواساطة تلك الافعال التى تتخذ وجهة نظر النسبية لكيفية حال امور واقعية او افتراضية ، وفى الحالة البدائية الراهنة لمعرفتنا فى هذا المجال ، فاننا نحتاج الى كلا الاعتبارين بالرغم من التداخل الذى قد يكون قائما بينهما ، غير أن ما يؤكده الاعتباران هو أن أى منطوق مفرد قد تكون له وظائف جديدة او يمثل اكثر من فعل واحد ، فالمنطوق قد يؤكد كيفية حال امر من الامور وقد يتطلب تصرفا ما من قبل المستمع ، وقد يكون له وظيفة اسنادية ووظيفة توجيهية فمثلا اذا قيل « ائتنى بهذا الكتاب » فان ذلك « يؤكد » على وجود ومكان شىء ما ، ويضع مسمى لذلك الشىء و « يوجه » المستمع الى اتيان تصرف ما حياله .

تعليم اللغة ووظيفتها :

اننا لا نعلم ، بوجه التاكيد ، قوى وجود كل وظائف الحديث ، التى اشرنا اليها ، فى كل الثقافات. الا انه من المؤكد ان الاهمية النسبية لهذه الوظائف المختلفة قد تختلف من ثقافة الى اخرى ، وقد يتنوع توزيع تلك الوظائف ، ففى بعض الثقافات تبدو فيها وظيفة الاتصال اللغوى ، اى استخدام اللغة لاقامة الاتصال الاجتماعى وحسن النية والحفاظ عليهما ، كأمر اكثر اهمية ، فمثلا يعتقد نفر من الناس أن التكرار النسبى للشكر يختلف فى امريكا عنه فى بريطانيا ويؤدى هذا النوع من الاختلاف الى الحكم على أن الافراد فى طبقات وبلاد وفئات اجتماعية معينة ... الخ اكثر « تأدبا » ، ففى بريطانيا ، مثلا ، لا توجد لدينا اجابة شعائرية للتعبير عن الشكر ، كما هو الحال فى امريكا اذ يقولون « مرحبا بكم » ، او فى فرنسا اذ يقولون « أتوسل اليك » أوفى المانيا اذ يقولون « أرجوك » . الا أن هذا لا يعنى عدم وجود اجابة لفظية موافقة لمثل هذا الموقف — بل أن صيغتها قليلة التنبؤ بها . وفى بعض الثقافات يعتبر توجيه الاسئلة امرا غير مقبول فى مهام معينة ، بينما يكثر الاستخدام الشعرى للغة فى ثقافات اخرى .

ولكى يشارك المرء فى الحياة الاجتماعية للمجتمع يجب أن يكون فى مقدوره أن يخاطب ويتلقى المخاطبة، ولهذا السبب يتعلم المتعلم لغة ما ، واذا ما تركنا جانبا حالة المتعلم الذى يدرس اللغة ببساطة كوسيلة للتقدم العلمى ثم يمضى فى اهمالها ، فأى فرد يتعلم لغة يفعل ذلك الشىء ، أو يطلب اليه فعل ذلك ، بحيث تصبح وظيفية أو ناقصة بشكل ما وهذا لا يعنى قصر نطاق الوظائف التى اشرت اليها على تلك التى تكون طوع ابناء اللغة الاصليين . هذا ويمكن الحد من وظائف اللغة الى حد كبير ، فمتعلم اللغة قد يعرف — بكل دقة — الغرض الذى يريده من وراء اللغة ، أو قد لاتكون لديه فكرة واضحة البتة ، كما شاهدنا فى الفصل الأول : نحن بحاجة الى تحديد اهداف اللغة فى اية عملية من عمليات تعليم اللغات ، ويمكن التعبير عن هذه الاهداف فى نطاق ما نود أن يتمكن المتعلم من عمله فى نهاية المقرر الدراسى ، ويمكن صياغة تلك الاهداف فى نطاق النوايا التى يجب أن يكون قادرا على نقلها ، وماهية فئات افعال الحديث التى يجب عليه تأديتها ، او ماهية وظائف الحديث التى يجب أن يجيدها ، كما يمكننا تناول المسألة بطريقة مختلفة بتحديد ماهية الادوار التى يجب عليه ان يؤديها فى المجتمع ، فالدور الاجتماعى عبارة عن مجموعة من الحقوق والالتزامات تشغل نطاقا معينا من السلوك، محددا بوضوح تقريبا ، ويتوقف على طبيعة الدور موضوع البحث ، وفى معظم المجتمعات ، لا يندمج المتعلم فى ذلك الدور كعضو تام مع كافة الادوار المتعددة التى قد ينجزها عضو فى ذلك المجتمع أو ينتسب اليها ، ومن المحتمل أن ينسب اليه دور «الاجنبى» ولهذا الدور توقعات معينة ترتبط به ، من ذلك تسامح كبير ازاء الانحراف عن معايير السلوك المختلفة ،اللغوى منها وغير اللغوى، وكثيرا ما نسمع عن ايجاد المعاذير ازاء تصرف غريب يأتيه شخص أجنبى بكلمات من قبيل « لا يمكنك أن تتوقع منه معرفة ذلك فهو اجنبى » ، ومع ذلك فمن المحتمل جدا أن مانتوقعه من الأجانب ، اى الدور السلوكى « للاجنبى » قد يعرف بطريقة مختلفة للغاية من ثقافة الى اخرى . فمثلا ، يعتقد ، على نطاق واسع ، أن الفرنسيين يعدون اقل تسامحا من البريطانيين ازاء الانحراف اللغوى فى المتحدث الاجنبى ومن سوء الطالع اننا ما زلنا لا نعرف سوى القليل عن دور الاجنبى فى الثقافات المختلفة فيما يتعلق بالحقوق والتوقعات ، والدلالة التى لدينا انما تتسم بالقصصية والذاتية ، بينما يجد المتعلم دور الاجنبى

قد التصق به ، قد تكون هناك ادوار اخرى — مهنية : مثل العالم أو مندوب المبيعات ، أو مستقلة كما هو الحال بالنسبة مثل السائح أو الرياضي — التي قد يرغب في اتخاذها ، ومع كل من هذه الادوار ، ثمة مجموعة من وظائف الحديث التي يجب عليه اجادتها .

وفي ايامنا هذه ، هناك اهتمام كبير بما يسمى اللغة العلمية أو التقنية ، والحاجة الى تدريسها ، وسأتناول ذلك في الفصول القادمة ، ولكن قد يكون من المجدي تبني الرأي القائل أن ما ندرسه للمتعلم ليس لغة فرنسية أو المانية «علمية» ،غير أننا حتى اذا ما حددنا أهداف التدريس في نطاق انماط المحادثة التي يعد المتعلم نفسه للمشاركة فيها ، فان فكرة وظائف اللغة تظل ملائمة . هذا وقد تركز كثير من البحث فيما يسمى « اللغة العلمية » على خصائص اللغة التي يستخدمها العلماء ، وعلى التركيبات النحوية المستخدمة وتكرارها النسبي ، وعلى طبيعة المفردات والتكرار النسبي للكلمات المختلفة (هدلستون 1971 Huddleston (10) وقد أثبت ذلك البحث أن الاختلافات بين مثل هذه المحادثة والمحادثة العلاعلمية لم تكن بالجسامة التي كان يمكن توقعها ، ولعلنا نجد أن معالجة تنطوي على تحليل اللغة العلمية في نطاق وظائفها تكون معالجة واعدة ، فقد نجد مثلا ، أنها قد تكون كما سبق واقترحنا ، شيئا وراء اللغويات بشكل غالب ، أو انه كان هناك رجحان لافعال الحديث التنبؤية او الاسنادية وانعدام فعلي للافعال التوجيهية ، أو أن وظيفتها الشخصية او الشاعرية ضيقة النطاق ، على أن مناهج عمليات تدريس اللغة تميل الى التعبير في نطاق قائمة من الصور اللغوية المفروض حفظها ، وربما لم يلتفت واضعو تلك المناهج كثيرا الى الغرض من استخدام تلك الصور اللغوية . وكثيرا ما يسمع المرء شكاوى متكررة من المعلمين مضمونها أن المتعلمين يبدون كما لو كانوا يتقنون اللغة في حجرة الدراسة ، بينما يفشلون في استخدامها بطريقة مرضية خارجها ، وذلك يوحي بأن المتعلمين اكتسبوا وظائف الحديث الملائمة لحجرة الدراسة ، او انهم حذقوا دور « متعلم اللغة » لا غير .

هذا وسنجد صعوبة في صياغة منهج « وظيفي » بمفهوم لغوي رسمي الى أن نعرف قدرا كبيرا عن العلاقة بين الصور اللغوية ووظائفها في الحديث ، فنحن قد نعلم الطالب تكوين الجمل الاستفهامية ، ونفشل في تعليمه كيفية صياغة الاسئلة بطريقة ملائمة والى أن نعرف الكثير عن هذه العلاقة ، لا يمكننا تدريس الوظائف اللغوية بطريقة نظامية ، لذلك اذا نظرنا — من وجهة النظر الوظيفية — نجد أن ثمة مهمة على المتعلم يعجز المعلم — نسبيا — عن مساعدته بشأنها ، وهو موقف سنقابله بصفة متكررة في كتابنا هذا ، واذا كنا محظوظين سيتعلم متعلمو اللغات في آخر المطاف قدرا كبيرا مما لا نعلمهم اياه أو لا نستطيع تعليمهم اياه لان وصف ذلك لا يتوفر لدينا بقدر كاف. هذا هو الحال بالنسبة لتعلم وظائف اللغة — من حيث استخدام اللغة لغرض ما ، ويكمن الحل الوحيد الذي علينا تقديمه ، في الوقت الحاضر ، في عرض كمية كبيرة ومتنوعة من اللغة على هيئة نصوص قرينية على الطالب ، وعليه أن يسمع ويرى « اللغة عمليا » وهذا لا يعني الاستماع الى اللغة فحسب ، انما يعني تقديم موقف الحديث برمته فلا يمكن للطالب ، مثلا ، ان يحكم من الصوت وحده على ما اذا كانت « ذلك الطلاء رطب » عبارة عن جملة اخبارية أو تحذيرية ، وعلى « ستاتي » كشيء من قبيل التنبؤ أو نوع من الامر ، فيجب على الاقل توافر البيانات التي يكتشف فيها قواعد وتقاليد السلوك اللفظي بنفسه ، ونحن لا نهتم فقط بتعليم الطالب انتاج كلمات مترابطة نحويا بطريقة مقبولة ، بل بتعليمه استخدام اللغة لغرض ما ، ليتخاطب بها ويتلقى مخاطبة بها ، اي تعليمه اداء ادوار بعينها .

---

(10) Huddleston, R.D., (1971). « The sentence in written English : a syntactic study based on an analysis of scientific texts », Cambridge Studies in Linguistics, no. 3, Cambridge University Press.